العددِ1 21A حزيران 2026
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
NO.21A1 Jun2026 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

شعرية الصمت في كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب)

أ.د. سهام صائب خضير
جامعة بغداد / كلية اللغات
sihamsaib@colang.uobaghdad.edu.iq

الملخص :
الصمت أساس الكون فالطبيعة صامتة كسر الإنسان صمتها باللغة ، وتجلى ذلك فيما بعد بالشعر، والشعر قائم على ثنائية الكلام والسكون بطريقة الخاصة ، فالصمت موجود في أصل الشعر يعبر عن معانٍ كثيرة مثل الكبت ، والخوف ، والتردد ، والصوت الذي مثّل دواخل الإنسان و خارجه تناوله الشاعر من خلال الثنائية (الصمت / الصوت) في الشعر ، بل إن الشاعر وجد أن الصمت هو السلامة من كل مشكلة يمكن أن يقع فيها الإنسان وهي طوق النجاة الذي يضفي على الإنسان هيبة . ظهرت ألفاظ كثيرة في الشعر تدل على الصمت بصورة مباشرة منها : السكوت ، والكتم ، و الخرس ، والصمت العقابي ، و أخرى تدل على الصمت بصورة غير مباشرة كأن يقول عبارة (وأسمعه) ، فحينما نسمع شخصاً تثقل كلماته على أسماعنا تتوجه جوارحنا نحو الصمت ، وبرز من ألفاظ الصمت مفهوم الصمت العقابي الذي يلجأ إليه الإنسان للتعبير عن غضبه من شخص ما في حياته ، فيكون الصمت هو الحل المثالي بدلاً عن الكلام . ولو تتبعنا هذه الألفاظ الدالة على الصمت في الشعر لوجدنا أمثلتها موجودة في كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) للشيخ أحمد بن المقري . درست موضوع الصمت في هذا الكتاب ووجوده في إيقاع الشعر الداخلي الذي يكشف تأثير السكون والحركة في المعنى ولاسيما في القافية لأهميتها في إيقاع البيت الشعري ، وتوجيه المعنى ، فهي آخر ما يرد على مسامع المتلقي فالحركة توجه الحرف وتضفي عليه نغمة يخلو منها بينما السكون يبرز الصوت الحقيقي للحرف بلا تلك الإضافة التي تعطيها الحركة ، وهذا الأمر له علاقة وثيقة بمعنى البيت الشعري . سخّر الشاعر أساليب بلاغية كثيرة حينما عبر عن موضوع الصمت في شعره منها : الحذف ، والجناس ، الطباق ، والصورة الشعرية . أن هذه الأبيات الشعرية التي تخيرها المقري في كتابه تنماز بجمالية لغتها وقدرتها على إيصال معنى الصمت بطريقة إبداعية ، فبينت لنا ذوقه الأدبي والفني من وجهة نظر الناقد المفكر.
الكلمات المفتاحية : الصمت ، الصوت ، الشعرية ، القافية ، البلاغة.

The Poetics of Silence in Al-Maqqari's book, "Nafh al-Tayyib from Ghusn al-Andalus al-Ratib" (For Al-Muqri)

Professor Siham Saib (PH.D)
College of Languages / university of baghdad
sihamsaib@colang.uobaghdad.edu.iq

Abstract :
Silence is the foundation of the universe; nature is silent, the humanity broke this silence by language, this was later manifested in poetry. Poetry is based on the both of speech and silence in its own unique way. Silence is inherent in poetry and expresses of many meanings such as repression, fear, hesitation, and the voice that represents the inner and outer self of human. The poet study it the duality (silence/voice) in poetry. Indeed, the poet found that the silence is safety from every involved problem and it is the lifeline that gives the man its dignity. Silence is denoted directly by many words in poetry, including: quiet, suppression, muteness, and punitive silence. Others denote silence indirectly, such as the phrase " I hear him" when we hear someone, whose words weigh heavily on our ears, our senses incline towards silence. The terms related to silence, as punitive silence as a form of silence a person resorts to in order to express their anger towards someone in their life, using silence the ideal solution instead of speech. Tracing these terms denoting that the silence examples appear in the book "Nafh al-Tayyib from Ghusn al-Andalus al-Ratib" by Sheikh Ahmad ibn al-Muqri. This book explores the theme of silence and its presence in the internal rhythm of poetry, revealing the influence of stillness and

movement on meaning, particularly in rhyme, given its importance in the rhythm of the poetic verse and the direction of meaning. It is the last thing the listener hears as the movement directs the letter and gives it a tone its lacks from it, while stillness highlights the real sound of the letter without the addition that movement. This is related to the meaning of the poetic verse. The poet used many rhetorical techniques when he expressed the theme of silence in his poetry, as ellipsis, alliteration, antithesis, and poetic imagery. The Al-Maqri in his book are distinguished by the beauty of their language and their ability to convey the meaning of silence in a creative way, thus showing us his literary and artistic taste from the point of view of the thoughtful critic.

Keywords: silence, sound, poetry, rhyme, rhetoric

المقدمة :

الصمت ... أبلغ من الكلام أحياناً ، فعندما يعجز اللسان عن وصف مكنونات القلب ، يلجأ الإنسان لذلك السكوت الظاهر للعيان مع ضجيج النفس بما تختلج من عواطف ومشاعر ، و أحساس إنسانية لا توفيها حقها الكلمات ، والانفعالات الصوتية النفسية الظاهرة كصوت الأنين في حالة الألم .

خاض شعراء كُثر في موضوع الصمت وأبرزوا أهميته وتباروا في إظهار مواضيعه ، لاسيما موضوع الصمت العقابي الذي انتشر الحديث عنه مؤخراً في وسائل التواصل الاجتماعي ، وما يثيره من قطيعة وخصام بين الأفراد وتأثيره في المجتمع . ولما كان هذا الموضوع حاضرا في الشعر ركزت بحثي عليه ، بعد أن وجدت أمثلة الصمت كثيرة وآثرت دراسة الصمت العقابي في كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري) ؛ لكثرة الأمثلة فيه ، وجمعت من الأحاديث والأشعار التي فيها فائدة كبيرة .

قسمت بحثي إلى مطالب هي :

ـ المطلب الأول : فن الصمت ومرادفاته .

ـ المطلب الثاني : الثنائية الضدية (الصمت والصوت) .

ـ المطلب الثالث : تعريف مصطلح الصمت العقابي ومعانيه التي وردت في الشعر .

ـ المطلب الرابع : الصمت الشعري في الإيقاع .

ـ المطلب الخامس : بلاغة الصمت . وختمت بحثي بجملة من النتائج.

المطلب الأول : فن الصمت ومرادفاته :

الصمت قسيم الكلام ؛ فالصمت حاجز يكسره الكلام بالفهم والإيحاء ويمثل الكلام المضاد للصمت بالحوار ، والحوار أساس في بدء الخليقة ، وجاء أول حوار بين ربنا العظيم سبحانه وتعالى وآدم عليه السلام حينما عصى ، ولا نعلم قبل ذلك وجود نطق نطقه العباد . والصمت هو ستار للإنسان فلا نستبين كنهه إلا بلسانه . فلا يتمحور الكون حول انسان حينما يصمت ، بل يكون جزءًا لا يتجزأ منه فالطبيعة عادة ما تكون صامتة فتأتي أصوات الكائنات لتضفي حركة عليها . فالكلام يجعل لما يحيط بنا معاني كثيرة ، ((عندما نتوقّف عن الكلام ، فليس ما يحدث ببساطة الصّمت ، إنه أكثر من مجرد انصراف سلبي عن اللغة ؛ من محض حالة يمكننا أن ننتجها بالإرادة)) (بيكارد ، 2018 م : 23) ..

وجدت للصمت ألفاظ تدل على الصمت بصورة مباشرة مثل : السكوت ، والكتم ، والخرس ، والصمت العقابي ، و أخرى تدل على الصمت بصورة غير مباشرة كأن يقول عبارة (وأسمعه) فحينما نسمع شخصاً تتوجه جوارحنا للصمت ، ولو تتبعنا هذه الألفاظ الدالة على الصمت لوجدنا أمثلتها حاضرة في كتاب (نفح الطيب) ، ينظر الشاعر ابن جابر الهّواري إلى الصمت كأنه ملاذ للناس من الوقوع بالزلل فلا نجد نادماً عن الصمت ، وفي ذلك قال (المقّري ، 2008 م : 312/7) :

أحسنُ ما نال الفتى من كرمٍ ... أن لا يَرَى من أجله من ائتذى

والصمتُ عمّا لا يفيد قوله ... مِنْ كَلِم يهذى به فيمن هذى

لا شيءَ كالصمتِ وقاراً للفتى ... يوماً ولا أنجى لهُ من الأذى

كان الغرض الأساس من أبيات ابن جابر تتمثل في تقديم النصائح لكل من يرغب في مكانة في المجتمع ، فحينما لا تجد ما ينفع في الكلام وما لا صحة لوجوده ، فالصمت أولى للبشر . فالصمت ستر الشخص الواقي من شر أفكاره

وبغيابه تبرز عيوبه وتُذاع بين الناس ، وحينئذ يصعب إصلاح عيوبه لاحقاً فلو حافظ على صمته ؛ لسلمت السيرة والأعراض . وذهب شاعر آخر الى معنى هذا القول بضرورة التزام الصمت لكي لا يعطي فرصة للمتربصين أغلاطه (المقّري ، 2008 م: 5/ 597) :

والزم الصمتَ إذا ما خفتَ أن تلحى فتغلطْ
فعلـى الفاضلِ يُلْـفى كلُّ مفضولٍ مُسَلّطْ

فمن صفات الفاضل الواردة في الشعر هو الصمت ولكل شخص فاضل شخص يراقبه ويترصد عيوبه ؛ لذلك نجد بعض الشعراء مثل أبو عبد الله ابن خميس الجزائري يدعو إلى (سجن اللسانِ) ، فهذا الأمر يجعلنا نعجز عن النطق ، فالتفكير بالكلام قبل النطق به يجعلنا بمأمن من غدر الزمان فقال (المقّري ، 2008 م : 4/ 324)

تحفَّظ من لسانك، ليس شيء أحقّ بطول سجن من لسانِ
وكن للصمتِ ملتزماً إذا ما أردت سلامة في ذا الزمانِ

جعل الشاعر شروط السلامة في زمانه الالتزام بالصمت ((وهذا الصمت الظاهر ، في صيغته الاجتماعية / المجتمعية ، ينطق بكلام مخالف لما هو متداول من كلام رسمي إنه صمت صدامي ، أو اجتجاجي ، أو صمت رفضي ، لما هو سائد ، وممارس ضد هؤلاء الصامتين)) (محمود ، 2002 م :177) ، فكم شخص خسر حريته وحياته بسبب آراء قالها أو معتقدات صرح بها ، وأكثر الشعراء من هذا المعنى فعلى الرغم من صغر اللسان وضعفه إلا أنه قد ينهي حياة من لا يراعي كلماته ، قال الشاعر(المقّري ، 2008 م : 5/ 17) :

عليـكَ بالصمتِ فكم ناطــقٍ كلامُــهُ أدَّى إلــى كَلْمِـهِ
إنَّ لسانَ المــرءِ أهـدى إلــى غِــرَّتهِ والله مــن خَصمهِ
يرى صغيرِ الجرمِ مستضعفاً وجرمُهُ أكبرُ منْ جرمِهِ

هذا المعنى شائع في الأبيات التي تتحدث عن الصمت ، ذكر الحاجظ في رسائله عن هذا المعنى عندما قال : ((واعلم أنّ الصّمت في موضعه ربّما كان أنفع من الإبلاغ بالمنطق في موضعه وعند إصابة فرصته ، وذلك صمتك عند من يعلم أنّك لم تصمتْ عنه عِيّاً ولا رهبة . فليزدك في الصمت رغبة ما ترى من كثرة فضائح المتكلّمين في غير الفرص ، وهذر من أطلق لسانه بغير حاجة)) (الجاحظ ، 1983 م : 140) ، فكثير ما ترد لفظة (الصمت) في غرض الحكمة ورجاحة العقل كذلك الحال مع لفظة (السكوت) لكن الفرق بين الصمت والسكوت هو أن الصمت مصطلح أوسع وأعم من السكوت فكلاهما يدل على الامتناع عن الكلام ، ويغلب الامتناع في الصمت لحكمة بينما في السكوت فالامتناع من أمر كالخوف (ينظر رمضان ، 2020 م : 1046.) ويمكن عدّ لفظة (السكت) من ألفاظ التي تدل على الصمت بصورة مباشرة من ذلك مخاطبة من ابن البربري المالقي إلى لسان الدين (المقّري ، 2008 م : 134/6) :

وإن سَكتوا كنتَ البليغَ لديهمُ تعبّرُ عن سرّ العُلا وتترجمُ

فجعل الفعل (سكت) دلالة على انصاتهم له ، و خوفهم منه ؛ بوصفه البليغ بينهم فالصمت سر للعلا . ويلجأ الشاعر إلى الصمت حينما تختلج النفس البشرية بمختلف المشاعر وأهمها تقدير الموقف واحترام المتكلم (الواعظ) كما حدث في أيام امتحان لسان الدين ابن الخطيب بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتُجْهِش هوَاتِفُه بالشعر يبكي نفسه ، وممّا قال (المقّري ، 2008 م : 111/5) :

بَعُدْنا وإن جاورتنا البيوتْ وجئنا بوعظٍ ونحن صُمُوتْ

وصف الشاعر حالة الرعب التي أحاطت به على الرغم من قربه من البيوت فعجت المواعظ والأفكار في داخله الصامتة المتفكرة بما مرّ عليه .

تدل لفظة (الخرس) على الصمت لما لصاحبها عجز عن النطق ، لاسيما مع من لديه فضل كبير عليه وذكر الشاعر الهيثم بن أحمد بن أبي غالب (المقّري ، 2008 م : 3/ 378) :

كـم مــن يَـدٍ لكَ لا أقــومُ بِشُـكرها وبها أشيرُ إليك إن خرست فمي

فعطايا الممدوح التي أشار إليها بقوله (كم من يدٍ لك) فوصفه بكثرة الأيادي عليه دلالة عن فضله و جعل موضع العطاء موضع الإشارة له لو عجز لسانه عن النطق لأي سبب من الأسباب تبقى ديمومة فضله عليه حاضرة أمامه .
ومن ألفاظ التي تدل على الصمت بصورة غير مباشرة (احفظ لسانك ، و اخزن لسانك) التي وردت في قول أبي القاسم ابن الأنقر السَرَقُسْطي حين قال (المقّري ، 2008 م : 4/ 114) :

احْفظ لسانَكَ والجوارحَ كلّها فلكلّ جارحةٍ عليكَ لسانُ
واخزنْ لسانَكَ ما استطعتَ فإنّه ليثٌ هَصُورٌ والكلامُ سِنانُ

عبر الشاعر عن الصمت بعبارات مثل حفظ اللسان و خزنه ، وفرض الشاعر هذا الأمر على كل الجوارح وليس على اللسان فقط . فشبه الصمت بالأسد القوي الشديد صاحب السطوة بين الحيوانات فهو سيد الغابة يحكم ويُقدم على ما يرغب لكنه يبقى بلا عقل فالحيوان له عقلية تختلف عن البشر . وشبه الكلام بالسنان لحدته وفتكه فهو ذو نهاية قاتلة . فتشبيه اللسان بالليث أو السنان ، كلاهما الحيوان والجماد بلا عقل وذوا نهاية جارحة مؤذية لمن لا يُجيد استعمالها .
ووردت عبارة (حفظ اللسان) عند شاعر آخر بصيغة فعل الأمر طالباً من السامع في بداية البيت فقال (المقّري ، 2008 م : 5/ 207) :

احفظْ لسانك لا تَبُحْ بثلاثةٍ سِنّ ومالٍ ما استطعت ومذهبِ
فَعَلى الثلاثةِ تُبْتَلى بثلاثةٍ بمكفِّـرٍ وبحاسـدٍ ومكذِّبِ

دعا الشاعر المخاطب إلى التزام حفظ اللسان مفصلاً ما يجب السكوت فيه وحصرها في ثلاثة هي : (السن والمال والمذهب) ، فحفظ اللسان عما سبق يبعدنا عن ثلاثة أنواع من الشخصية : (المكفِّر ، والحاسد ، والمكذّب) ، وهذه الشخصيات تبرز من خلال أقوالها . فلو التزمنا الصمت لكان ستراً لنا . وغلب هذا المعنى على الأبيات التي وردت فيها لفظة (الصمت) عند الشعراء بوصفه الستر من إظهار العيوب وطوق النجاة من شخصيات ، فربما تفسد حياة الشخص حين البوح ؛ لذلك كان الكتم طريقة أمينة ولاسيما في مجتمع فرضت عاداته وتقاليده أموراً على الأفراد منها رفض الحب تلك العلاقة البشرية النقية بين الأحباب لذلك لجأ الشاعر لكتم مشاعر حتى بات كالداء القاتل فقال الشاعر(المقّري ، 2008 م : 5/163) :

قد كتمتُ الحبَّ حتى شفني وإذا ما كُتِـمَ الـداءُ قَـتَـلْ

الكتم نوع من أنواع الصمت بصورة مباشرة لكنه أقوى منه لما للفظة (الكتمان) من إخفاء المشاعر مع الرغبة بالبوح بحقيقة ما لكن الشخص فضل اخفائها ، بينما الصمت يحمل دلالات عدة على المعنى ، فهو دليل على الحكمة وترك الكلام ، واختلف الصمت عن الكتمان في شدة الرغبة بالنطق فكلاهما بلا صوت ، لكن الصمت امتناع الكلام ، حتى لو كان الشخص قادراً عليه ، بينما الكتمان الرغبة بالكلام مع اخفاء معلومات .
استعمل أحمد بن ليون فعل الأمر (استعن) ليحض السامع على ضرورة الالتزام بالكتمان وجعله طريقة للنجاة من الشر فقال (المقّري ، 2008 م : 5/ 594) :

استعنْ في الأمـورِ بالكتمـانِ وتحفَّـظْ من شـرّ كلِّ لسانْ
كلُّ ما لا يُدْرى مِنَ امرك فضلٌ ليسَ فيهِ شيءٌ مِنَ الخسرانِ

شارك الشاعر تجاربه معنا حينما حثنا على الاستعانة بالإخفاء الأمور و تجنب الخوض فيها أمام كل انسان لكنه بدلاً من ذكر كلمة انسان ذكر كلمة (لسان) الدالة على اللغة التي تكشف لنا الخير والشر في دواخل الشخص ، ففضل الشاعر أن نخفي الأمور حتى لو كان فيها خير، فكتمان الأحوال لا ضير فيها ولا خسران .
واتخذ المتصوفة الصمت طريقاً للتعبير عن الحب الإلهي ومما أنشده لسان الدين لبعض المتصوفة من شيوخه ولم يُسَمِّه قوله (المقّري ، 2008 م : 5/ 202) :

هَلْ تَعلمونَ مصارعَ العشّاقِ عندَ الوَداعِ بلوعَةِ الأشواقِ
.... ومُوَلّهٌ لا يستطيعُ كلامَهُ ممّا يقاسي في الهوى ويلاقي

عبر المتصوف عن الصمت حين قال (لا يستطيعُ كلامَهُ) فقد عجز عن البوح مما أحسه به من العشق الألهي .
ومن أجمل ما ورد في الصمت المتبادل بين المحبوب و حبيبته ، ما قاله الشاعر(المقّري ، 2008 م: 5/ 336) :

وأسمعه من غير نطقٍ كأنّـــهُ يُلَقن سمعي ما تُوَسْوِسُ مهجتي

ذكر الشاعر معاني كثيرة بعبارات مقتضبة عندما قال (وأسمعه من غير نطق) أي إن حبيبته صامتة لكنه يسمع حديثها الداخلي ، و السماع نوع من أنواع الصمت ، فكلاهما يعبر عن نفسه بالصمت الظاهر والكلام المخفي في القلب . ((فالصمت مكون أساس من مكونات الحوار ، والمحادثات ، والتواصل بين البشر . على أن الصمت قد يؤدي وظيفة لا يستطيع الكلام القيام بها ، متى توفر له المقام المناسب ، ودلت القرينة على أن هذا الصمت صمتٌ قد أختاره صاحبه على نقيضه وهو الكلام .)) (رمضان ، 2020 م : 1055) . لكن الشاعر يعود بنا في الشطر الثاني الى معنى أكثر عقلانية وثنائية متضادة مع الصمت وهو الصوت الخافت المتكرر ، فيقول (يُلَقن سمعي ما تُوَسْوِسُ مهجتي) ، فهو يعرف أن ما أسعده من كلمات مسموعة ليس من حبيبته لكنه يشبه ما يسمعه منها ، ومن المعروف أن الحقيقة ليست كالشبه ، فنشعر بأننا نسير مع المعنى الذي وضعه لنا في الشطر الأول ، فكل ما يخطر في بال حبيبته يسمعه كأنه سلك من المعاني يبدأ بالشاعر بالسماع ، وينتهي بنفس الشاعر فقط ، فكلاهما صامت الشاعر وحبيبته فبات السمع هو المسيطر في هذا الموقف فبات حديث الأرواح هو سيد الموقف وسبب سعادة الشاعر .

ويرد الصمت شكلا من أشكال البر بالفعل وحينما أصبح أعلن الشخص عن أفعاله خرج فعله من حدود البر ومن ذلك قول الباجي أبو الوليد (المقّري ، 2008 م : 2/ 85) :

مَضى زَمَنُ المَكارِمِ والكِرامِ سَقاه اللهُ مِنْ صَوْبِ الغَمامِ
وكان البِــرُّ فِعْـلاً دُونَ قولٍ فَصار البِرُّ نُطْقاً بالكلامِ

وذيَّله بعضهم بقوله (المقّري ، 2008 م :2/ 85) :

وزالَ النّطْقُ حتّى لَسْتَ تَلْقى فَتىً يَسْـخُو بردٍّ للسّلامِ
وَزَادَ الأمْــرُ حَتّى لَيْسَ إلاّ سَخِيٌّ بالأذى أوْ بالمَلامِ

فاستعمل عبارة (زال النطق) دلالة للصمت حتى لم يجد من يرد السلام بل زاد أمرهم بكثرة اللوم والأذى .

برز الصمت في الأبيات السابقة بأغراض مختلفة منها : غرض الحكمة ، وغرض الغزل ؛ فحينما يعجز الشاعر عن الكلام يلجأ للصمت في حضرة المقابل . فعلى الرغم من قدرة الشاعر على الكلام ونظم ما لا يستطيع غيره نظمه من وزن وقافية إلا أنه أمام مواقف يُعرض عن الكلام لأسباب عدة أهمها : الحكمة في التصرف ، و حفظ الأسرار والمعلومات لدرء الشر و الوقاية من الحاسد ، والحب الألهي ، والعشق والغزل .

المطلب الثاني : الثنائية الضدية (الصمت والصوت) :

نحن ندرك الأشياء حينما نتفحصها ، ونكتشف خفاياها من خلال الاختلاف والتشابه بين الشيء وضده ، فكونت لنا ثنائيات متوافقة و متضادة و متشابهة ، ولعل أبرز هذه الثنائيات ما تحمل في داخلها علاقة التضاد ؛ لما تثير علاقات تجاذب في نفس المدرك ((بوصفها فكرة فلسفية على فكرة قدرة على الربط بين الظواهر التي يبدو أنها منفصلة ، فالتضاد رابطة مثل التماثل ، والتناقض رابطة ؛ لأنه يعني نفي النقيض ، فوجود النور ينفي وجود الظلام ؛ لذا يدخل النور والظلام في علاقة تناقض ، أما وجود الأبيض فيتضاد مع الأسود ، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد ، فالحالتان المتضادتان إذا تتالتا ، أو اجتمعتا معاً في نفس المدرك كان شعوره بهما أتم وأوضح)) (الديوب ، 2009 م : 5.) ، ونظر دافيد لوبروطون إلى هذه الثنائية بطريقة مختلفة عندما قال : ((الصمت والكلام ليسا ضدّين ، فكلاهما نشيط ودال ، والخطاب لا وجود له من دون علاقتهما المتبادلة . الصمت ليس فُضلة ... إذا كانت اللغة والصمت يمتزجان في تعبير اللغة ، يمكننا أيضاً القول إن كل ملفوظ يولد من الصمت الداخلي للفرد الذي يكون دوماً في حوار مع ذاته . كل كلام يكون مسبوقاً بصوت صامت ، ويحلم يقظة مليء بالصور الغامضة التي تكون دوماً فاعلة في النفس)) (لوبروطون ، 2019 م : 22.) لا تخلو هاتان النظرتان من الصواب فكلتاهما تنظر إلى هذه الثنائية بطريقة مختلفة فإحداهما ينظر إليها بوصفها مصطلحين مختلفين ندرك الأول بفهم الثاني بينما الرأي الثاني ينظر إليهما على أنهما مصطلحين لشيء واحد ، وهو اللغة فكلاهما يدخل في حيزها ويكمل أحدهما الآخر ، ويعدّ نوعاً من التعبير عن النفس سواء بالكلام أم بالصمت .

تكون هذه الثنائيات الضدية متعلقة بالقدرة على التعبير من عدمه ، فقد ((يكون الكلام الذي ينبعث من الصّمت كأنه مبرر بالصّمت الذي يسبقه ... حينما يبدأ الإنسان التحدّث ، تنبعث الكلمة من الصّمت عند كل بداية جديدة . إنها تأتي بوضوح وبشكل خفي جداً ، كما لو أنها كانت مجرد النقيض للصمت تماماً مثلما الصّمت هو عكس الكلام)) (بيكارد ،

المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

2018 م : 31 .) فنجد مواضع يحسن فيها الصمت ، وأخرى يقبح فيها الكلام ، وخلاف ذلك صحيح أيضاً مثال ذلك قول الشاعر (المقّري ، 2008 م : 5/ 553) :

إذا انطوتِ القلوبُ على فساد فإنَّ الصمتَ سترٌ أي سترِ
فلا تنطقْ وقلبك فيه شيءٌ بغير الحقِّ واحذرْ قولَ شرّ

وجد الشاعر أن الصمت ستر لكل ما هو معيب وفاسد ، فحث الشاعر على النطق حينما يرى المتكلم الحق ويدرك موضوعه . وكانت الثنائية الضدية (الصمت والصوت) حاضرة في الوصايا التي أهداها بعض الأشخاص للمقربين منهم بناء على تجاربهم الخاصة ، فيرغب بتجنيبهم الوقوع في الغلط ، فينصحه بترك الأشياء و تجنب المواقف . فقد وصى ابن سعيد الأب ابنه علي (المقّري ، 2008 م : 353/2 .) :

أفْـــش التحيّاتِ إلى أهْلِها ونبّـــهِ النـــاسِ علـــى رتْبتِكْ
وانْطِقْ بحيثُ العيُّ مُسْتَقْبَحٌ واصْمتْ بحيثُ الخيرُ في سكتتكْ

فظهرت هذه الثنائية الضدية (الصمت والنطق) التي تمثل القيمة الحقيقية للناس هذه القيمة التي تجعل صعوبة النطق (العي) شيئا مستهجنا قبيحا ؛ لذلك حث ابن سعيد ابنه على الصمت في مواقف أُخَر فخير له الصمت من الكلام . وأشار إلى ذلك سليمان بن عبد الملك الأموي حين قال المقّري ، 2008 م : 3/ 368) :

لســان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ولم يبقَ إلا صورة اللحم والدمِ
وكائنْ تَرَى من صامت لك معجبٍ زيادَتُـــهُ أوْ نقصة في التكلّمِ

يظهر لنا في هذين البيتين بنية شعرية مميزة متمثلة في الربط بين بداية البيت الأول (لسان) وما مثله في نهاية البيت الثاني (في التكلّم) ، وبين نهاية البيت الأول (اللحم والدم) و المكون للبشر المذكور وهو بداية البيت الثاني (كائن) فقد ربط بين بدايات الأبيات و نهايتها على هذه الشكل (المقّري ، 2008 م : 3/ 368) :

لســان .... اللحم والدمِ
وكائنْ .... في التكلّمِ

فحقيقة الإنسان في رأي ابن اللبانة تتكون من الثنائية الضدية (الصمت والصوت) فبدونهما يصبح لحما ودما بلا مشاعر . فكم مرة أعجبنا حسن المظهر، و منحنا مشاعر التقدير والاحترام لشخص صامت في مجلس لكنه ما أن تكلم حتى غيّر نظرتنا له سواء أكان ذلك التغير جيدا أو سيئا .
وكثر استعمال الكتم نوعا من أنواع الصمت لا سيما في حالة العشق ، ويقابل الكتم مصطلح النطق فكلاهما يعبران عن حالة الإنسان في حالة (الصمت والصوت) من ذلك قول عبد العزيز أبي سلطان في ليلة الميلاد المعظم (المقّري ، 2008 م : 115/6) :

القلبُ بعشــق والمدامـــعُ تَنْطِقُ برحَ الخفاءُ فكلّ عضـــو منطـــقُ
إن كنتُ أكتم ما أكنُّ من الجوى فشحوبُ لوني في الغرام مصدّقُ

جعل لمدامع إنسان لسان ناطق و جعل لكل عضو منطقا ، و الصمت يفضحه حاله وشحوب لونه ، فحينما يغرق الإنسان في الحزن يلجأ الى الصمت فيكون مظهراً من مظاهر الحزن .
برزت في الثنائية (الصمت والصوت) معانٍ كثيرة أهمها أن الصمت عز و نجاة من كل سوء فلا يستطيع السامع أن يبرر و يفسر الأمور على حقيقتها حينما يلجأ الشخص إلى الصمت . قال الشاعر (المقّري ، 2008 م : 5/ 564) :

الصمتُ عزٌّ حاضرٌ وســــــلامةٌ من كـلِّ شر
فإذا نطقتَ فلا تُكــ ـثـِّــر واجتنبْ قولَ الهذرْ
وحَـــذارِ ممّــا يُتَّقَى وحَـــذارِ من طرق الغررْ

وصف الشاعر الصمت بأنه عز و سلامة بينما وصف الكلام بالهذر أي الكلام الفارغ . ويكثر هذا المعنى عند الشعراء .
واتجه شاعر آخر إلى المبالغة في الصمت فجعل الشاعر أحمد بن ليون الصدر قبر لكل سر والسكوت عنه خير من البوح ، فلو نطق الإنسان بسره أصبح عبداً لكل ما هو شر فقال (المقّري ، 2008 م : 5/ 577):

اكتم السرَّ واجعلِ الصدرَ قَبْرَهْ لا تَبُحْ ما حييت منه بذَرَّهْ
أنت ما لم تَبُحْ بسرك حرٌّ فإذا بحتَ صرتَ عَبْداً بمرّهْ
من يُرد أن يعيشَ عيشاً هنيئاً يتحفظّ ممّا عسى أن يضرَّهْ

ركز الشاعر على أهمية الثنائية الضدية (الكتم ، البوح) كالفرق بين الحرية والعبودية ، وبين العيش براحة من عدمه .

وتدل الثنائية الضدية (الذكر ، السمع) التي تحمل معنى (الكلام و الصمت) إلى الاحترام والتقدير لشخصية ذُكرت في مجلس ومن ذلك قول الشاعر(المقّري ، 2008 م : 511/7) :

تأدبْ إذا ذُكِرَ المصطفى بصمتِ اللسانِ وغضّ البصرْ
فإنَّ التأدبَ عند السماع يفهّم في النطقِ أو في النظرْ

دعا الشاعر السامع إلى الالتزام الصمت وغض البصر احتراماً للحبيب المصطفى (صل الله عليه وسلم) فمن اللائق الصمت والسماع في حضرته الشريفة .

وتأتي ثنائية الضدية (الصمت والصوت) تعبيراً عن حالة الشاعر الذي شهد مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش ، وقد كان بناؤها عجيباً في بلاد الأندلس ، وهي قريبة من قرطبة ، أبياتاً تذكّر العاقل ، وتنبّه الغافل ، وهي (المقّري ، 2008 م : 1/ 523) :

ديارٌ بأكْنافِ المَلاعِب تَلْمَعُ وما إن بها من ساكنٍ وهيَ بلقعُ
ينوحُ عليها الطيرُ من كل جانب فَيَصْمُتُ أحياناً وحيناً يُرَجّعُ
فخاطبت منها طائراً متغرّداً له شَجَنٌ في القلب وهو مُرَوَّعُ
فقلت : على ماذا تنوح و تشتكي ؟ فقال : على دهرٍ مضى ليس يرجعُ

فجاءت هذه الثنائية الضدية على لسان الطير الذي حاول الشاعر استنطاقه ؛ ليعبر عن حال المدينة التي لحقها الخراب .

فليس بالضرورة تعبر هذه الثنائية عن الأشخاص فربما تعبر عن شيء خارج عن النفس وهو احترام الآخر و تقديره فحينما يُذكر النبي الكريم (صل الله عليه وسلم) لا بد من الصمت فهذا النوع يعدُّ من الأدب . وتعبر الثنائية الضدية (الصمت أو السماع) و(الصوت أو النطق أو التكلم أو البوح) أمور لا حصر لها على وفق طبيعة المتكلم فمرة مثلت العاشق ، والمتصوف ، و الحزين وهي مقياس لحقيقة الإنسان وقدرته على تميز المواقف التي يحسن فيها الصمت ويسوء الصوت أو خلافه . فحقيقة الإنسان تبرز في التعبير عن نفسه ، فنحن لا نستبين حقيقة الصامت إلا من خلال الكلام .

المطلب الثالث : تعريف مصطلح الصمت العقابي ومعانيه التي وردت في الشعر :

يُفهم الصمت العقابي على أنه تجاهل الطرف الآخر على نحو متعمد بالصمت ؛ وذلك لوضع الحدود بين العلاقات ومن ذلك قول أبي بكر محمد (المقّري ، 2008 م : 3/ 425) :

خاصمْ عدوّك باللسا نِ وإن قدرت فبالسِّنانِ
إنَّ العداوة ليس يُصْـ لِحُها الخضوعُ مدى الزمانِ

ووجد الشاعر خير وسيلة للدفاع عن نفسه هو اللسان فإن لم يستطع فبالسنان . فمثل اللسان في قول الشاعر ثنائية (الصمت / الكلام) فلم يحدد بوضوح أيهما يختار ؛ وذلك نابع من تصرف المقابل متى كف عن الأذى وإلا يجب التصدي له .

ويشرع الإنسان إلى الصمت لمرات عدة فيُجبر على التحدث فيكون بين حالتين أحدهما أصعب من الأخرى وهما : الاستمرار بالصمت أو التكلم بما حدث سابقا فتكون النتيجة إعراض الآخر ومن ذلك مخاطبة أبي عبد الله الوادي آشي للسان الدين ، كتب إلي وقد أبى عملاً عُرض عليه بقوله (المقّري ، 2008 م : 102/6) :

أَصْمتُ ألفاً ثمَّ أنطقُ بالخلفِ وأفقدُ إلفاً ثم آنسُ بالجِلفِ

وعاقب الشاعر المقابل بالصمت عن أفعاله لكنه وقع في حيرة البوح بما ألم به أم البقاء على حاله والتزم الصمت .

يختلف الصمت العقابي في طبيعته و دوافعه فغالباً ما يكون متعمداً فهو أداة للتجاهل والتأديب و يتسم بالعدوانية المقصودة للآخر . فيدعو ذلك إلى معاتبة بين الأفراد ، فكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتباً (المقّري ، 2008 م : 3/ 274) :

وشاع شنيعُ قطعك لي بوصلي فهلاّ كـان ذلك في اسـتتار
أيجمل أن تُـرى عني صبوراً فأصبحَ مولعاً دون اصطبار
وكنت أزيدُ سـمعك من عتابي ولكن عاقني فَرْطُ الخَمار

حينما هجره الحبيب وشاع ذلك عنه فتلك الأفعال من أقوى ردة فعل من الأفعال التي جرحت الشاعر فقابلها بالصمت العقابي ، والإنصات فمشاعره فاقت الكلمات والعتب .
ويصف أبو بكر ابن سدراي لوعة الهجر وصمت الحبيب وإعراضه عن إرسال التحية بأي صورة كانت وقد كثر هذا المعنى في شعر الغزل ولاسيما حين الفراق ، مثل قول الشاعر (المقّري ، 2008 م : 3/ 407) :

ما ضركم لـو بعثتـمْ و لـو بأدنـى تحيّهْ
تهزّنـي مِـنْ شَذاها إليكـمُ الأريحيّـهْ
خُـذوا سـلامي إليكمْ مـع الرياح النّديّـهْ
فـي كـلِّ سـحرةِ يومٍ تَثْرَى و كلِّ عَشيهْ
يا ربَّ طال اصطباري ما الوجـد إلا بليّـهْ
غَيـلان بالشرقِ أضحى وحلّتِ الغربِ مَيّهْ

فقد بخل الحبيب بإرسال التحية فبات العذاب من نصيب الشاعر الذي طال صبره .
وهناك من لجأ إلى لغة العيون فقد ((وظف شعراء الغزل الصمت من خلال اللجوء إلى لغة الإشارة أو كلام العيون للتعبير عن مشاعرهم ، ومواقف اللقاء والوداع وغيرها من المواقف التي ظهرت فيها الذي يجعل اللسان عاجزاً عن الكلام ويستعمل الشاعر لغة الإشارة وهي الغمز ، وتحريك الحاجب في إيصال مشاعره وحبه . فجاء توظيف الشاعر للصمت بصورة موحية في التعبير عن هذا الحب وترك الكلام للحب والهوى لإظهار المشاعر)) (غباش ، 2021 م : 481) ، فأنشد قوله (المقّري ، 2008 م :1/ 619) :

العينُ تُبْدي الذي في نفسِ صاحبها مـن المحبّـة أو بُغْضٍ إذا كانـا
فالعَيـن تنطـق والأفـواه صامِتَـة حتى تَرَى من ضمير القلب تبِيْانا

فحينما يكثر الجدل و يغيب الصواب يكون الصمت أفضل من الخطاب وهذا الأمر يبين لنا أهمية الصمت مقارنة مع الصوت فكلاهما يحسن في موضع ويسوء في أخرى ، و يبرزا في مواقف نستبين منها كنه الآخر وكأنهما مرتبطان عند الإنسان على نحو لإرادي .
ولعل غرض هذا النوع من الصمت العقابي هو جلب الراحة للشخص فحينما يكون الكلام غير مقنع لآخر يكون الصمت هو الخيار الأفضل وهذا ما ذكر الشاعر في قوله (المقّري ، 2008 م : 3/ 594) :

ولم أردَ غيرَ صمتي من مريح إذا ما لم يفدْ فيه الخطابُ

لا شك في أن للصمت العقابي تأثيرا في من يمارسه والألم الذي يتعرض له ، فالصمت ضد طبع البشر الذي يعجبه مشاركة مشاعره مع من يحب .

المطلب الرابع : الصمت الشعري في الإيقاع :

أصل الشعر قائم على الساكن والمتحرك من الأصوات وذكر ذلك ابن عبد ربه ذلك حينما قال : ((اعلم أنّ أوّل ما ينبغي لصاحب العروض أن يبتديء به ، معرفة الساكن و المتحرّك ؛ فإن الكلام كله لا يعدو أن يكون ساكناً أو متحرّكاً)) (الأندلسي ، 1983 م : 6/ 270 – 271) أي ما يمثل الصمت هو السكون ، و يمكن تمثيل الصوت بالحركة .
فالعروض هو ما يُميز الشعر عن النثر . ولا يسمى الشعر شعراً لولا هذا التميز ، فحينما نعمد إلى التقطيع الشعري ((هو وزن كلمات البيت بما يقابلها من تفعيلات مبنية على نظام للحركات والتسكين ، للتواصل إلى معرفة البحر الذي جاء البيت عليه)) (يموت ، 1992 م : 17 .) . ومن الساكن والمتحرك تتكون التفعيلات ومنها تتكون بحور الشعر ،

وبذلك نحدد القافية التي تمثل نهاية البيت الشعري كما وصفها ابن رشيق في كتابها بأنها ((اختلف الناس في القافية ما هي ؟ فقال الخليل : القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله ، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن ، والقافية – على هذا المذهب ، وهو الصحيح – تكون مرة بعض الكلمة ، ومرة كلمة ، ومرة كلمتين)) (القيرواني ، 1981 م : 1/ 151) ، ويبلغ إيقاع الشعر قمته حينما ينطق الشاعر القافية فهي اعلان لنهاية البيت ، وبداية بيت جديد وقد قسم ابن رشيق الشعر نظراً لحركة القافية فقال : ((إن الشعر كله مطلق ومقيد ؛ فالمقيد ما كان حرف الروى فيه ساكناً ، وحرف الروى الذي يقع عليه الإعراب ، و تبنى عليه القصيدة ، فيتكرر في كل بيت وإن لم يظهر فيه الإعراب لسكونه)) (القيرواني ، 1981 م : 1/ 154)

ويمكن عدّ السكون في القافية نوعا من الصمت الذي يعلن فيه الشاعر نهاية قوله فينتج عن ذلك إيقاع مميز يختلف عن قوافي الصوت المتحرك ، فهذا النوع من القوافي يضفي نغمة خفية عند النطق ويوضح نطق الصوت . ((إن في القافية المقيدة صرامة وجهامة ليست في القافية المطلقة ، والقافية المقيدة مطلوبة هنا للشاعر لارتباط وقوع هذه الظاهرة في شعره بمواقف الحزن والأسى)) (الشاعر ، 2013 م : 48 .) ، فحينما نلفظ مثلاً صوت الميم هو صوت يخرج من بين الشفتين و مخرجه عند انطباق الشفتين مع مصاحبته لغنة تخرج من الخيشوم (ينظر النعيمي ، 1980 م : 310 .) ، فحين نطق حرف الميم ساكناً نركز على الحرف على نحو كبير ولاسيما الغنة فيه فيشبه هذا الصوت صوت الأنين ، وردت هذا النوع من القافية حينما وفد على المنصور بن أبي عامر الشاعر المشهور أبو عبد الله محمد بن مسعود الغَسّاني البجاني اتُّهم برهق في دينه ، فسجنه في المطبق مع الطليق القرشي ، والطليق غلام وسيم ، وكان ابن مسعود كَلِفاً به يومئذ فقال (المقّري ، 2008 م : 3/ 388 – 389) :

دعوتُ لمّا عيلَ صبري فهلْ ... يسمعُ دعوايَ المليكُ الحليمْ
مولايَ مولايَ ألا عطفةً ... تَذْهَبُ عنّي بالعذابِ الأليمْ
إن كنتُ أضمرتُ الذي زَخرفَوا ... عنّي فدعني للقديرِ الرحيمْ
فعنده نَزَّاعَةً للشوَّى ... وعندهُ الفردوسُ ذات النعيمْ

جسدت هذه القافية معاناة الشاعر ومدى صبره (الحليم – الأليم) كما جسدت القافية رغبته بالعفو الذي سيخرجه من الجحيم إلى النعيم (الرحيم – النعيم) فوصفه بالرحيم وهو يترجى المنصور بن أبي عامر المعرض عن شكواه والسامع لها ، فكانت دعواته التي أجهدته بلا فائدة فتعب الصبر منه فتفجرت شكواه بسؤال : (هل يسمع دعائه ؟) . فيستعطفه بأسلوب النداء ليعفو عن العذاب الأليم يقول : (مولاي مولاي) و اختار في نهاية كلامه صوت الميم المضمومة التي حينما مثلت قمة معاناته فلم يزل الصمت جواباً له ، فما كان من الشاعر إلا أن طلب أن يترك أمره لرب العالمين الذي إن شاء عفى وإن شاء عاقب فلديه النار التي تنزع اللحم عن العظم ولديه الرحمة والجنة . حملت قافية الميم المضمومة معنى عميقاً لذلك النوع من الصمت العميق الذي مارسه عليه المنصور فنفد صبر الشاعر ، و فاض الألم فيه فبات يرجو منه إطلاق سراحه ليواجه قدره . فبات الشاعر هو المذنب وهو الحاكم لجروحه التي خلفها الصمت العقابي .

ونجد لنطق صوت الميم متحركاً قدرة صوتية مضافة لها صوت الحركة ، فالحركة توجه الصوت إلى آفاق نغمية أخرى تتمثل في أماكن نطق الحركات الثلاثة ، وقد نشبع الحركة فيتحول نطق (الضمة) إلى حرف (الواو) ، وذلك يجعلها حروفاً تنافس حرف الروي في نهاية البيت الشعري فتضفي نغمة قد تكون غائبة عنا حينما لم نشبع هذه الحركات مثل قول الشاعر حينما نطق ميماً مضمومة (المقّري ، 2008 م : 1/ 474.) :

ألا حبّذا يَوْمٌ ظَفِرْنا بِطيبه ... بأكناف مرْج الخزّ والنهر يَبْسِمُ
وقد مَرِحت فيه الإوزّ وأرسلت ... على سُندُسٍ دُرّاً بـه يَتَنَظّمُ
و مُدَّ بـه للشمس فَهْوَ كأنّه ... لثامٌ لها مُلقًى من النّور معصمُ
أدرْنا عليه أكوؤساً بعثتْ بهِ ... من الأنس مَيتاً عاد وهو يُكلّمُ
غدوْنا إلَيْهِ صامتين سكينةً ... فرُحْنا وكلٌّ بالهوى يترنّمُ

تمثلت البؤرة المعنوية في أنهم غدوا صامتين أمام هذا الجمال المحيط بهم فجاءت القافية تمثل حالتهم التي كانوا عليها (يَبْسِمُ ، يَتَنَظّمُ ، معصمُ ، يُكلّمُ ، يترنّمُ) . ويجد ابن عبد ربه صاحب كتاب (العقد الفريد) أن قافية الميم المطلقة

أقوى من المقيدة : ((ولا يحسن أن يكون روياً إلا ما كان منها محرّكاً ؛ لأنّ المتحرّك أقوى من الساكن)) (الأندلسي ، 1983 م : 6/ 352) .

فبين الحركة والسكون يكمن الصوت والصوت وبها تتكون المشاعر الظاهرة والمخفية بما تحدثهما من تناغم عجيب .

المطلب الخامس : بلاغة الصمت :

لغياب الشيء تأثير أكثر من حضوره ، ويمكن وصف الصمت أنه امتناع الكلام لوجود أسباب مختلفة ، فصمت الشخص يبرر بمعانٍ كثيرة ترتبط بمشاعر مختلفة ، وهذا التكثيف في المعنى يؤدي إلى ظهور دلالات قد يفهمها المتلقي على وفق نظرته للأمور وفهمه على وفق مفاهيم وأحكام مسبقة خضع لها من خلال تجارب الحياة لكنها تبقى في حيز الكتمان حتى يُظهرها المؤول فتتيح فضاء للمعنى ، ومن هنا يبرز ((جماليات الصمت تهدف إلى كشف ما هو غائب ومطموس في فضاء النص ، فالصمت انحباس للصوت وليس عدماً كلاميّاً)) (بلاوي 1438 هـ: 23.) .

وعرض أبو القاسم ابن جُزَيّ هذه الفكرة حينما قال (المقّري ، 2008 م : 5/ 516) :

وَرُبَّ سكوتٍ كان فيه بلاغةٌ وربَّ كلامٍ فيه عَتْبٌ لعاتبِ

فالبلاغة عادة تكون بالكلمات والجمل بينما يرى ابن جُزَيّ الصمت بلاغة لا تقل عن الكلام ، فنبعت نظرته هذه من المقابل للصمت وهو الكلام غير المنطقي الذي يتحمل صاحبه معه العتب واللوم . فغالباً ما تحمل الثنائية المتضادة (الصمت – الصوت) معاني كثيرة تبرز لنا ((من خلال استبصار فاعلية المعاني المتضادة ولاسيما الصمت وألمه والصوت ولذته في مواجهة القراءة التأويلية يقودنا على تشخيص طبيعة توظيفها فتارة يكون الصمت رمزاً أو كناية مهينة ، وتارة يكون البوح هو المهيمن ، وحيناً نجد صراعاً بينهما ، وتارة نجد تلاحماً فيما بينهما ، حتى تغدو ضرباً من المجاز الذي يحمل دلالات يمكن ان نعدها شفرات لما وراء النص ، إذ تتلاطم أنفسهم الإنسانية التي تعدّ مصنع الأسرار بين أمواج تلك الضدية التي ارتبطت بطبيعة سلوكهم وتكوينهم وقيمهم الفكرية والاجتماعية والأخلاقية الذاتية والجماعية)) (جابر ، 2014 م : 180.) لذلك سخر الشاعر أساليب بلاغية كثيرة حينما عبر عن موضوع الصمت ومن هذه الأساليب :

- الحذف :

تتعدد الجوانب الدلالية و الإيقاعية للحذف في الشعر بما يتناسب والدفقة الشعورية المؤثرة في المسار الإيقاعي ، و يمثل أسلوب الحذف مكانة ذات قيمة في المعنى والإيقاع ، وأشار عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) إلى أهمية الحذف في الكلام فقال: ((هو بابٌ دقيقُ المَسْلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر، شبيه بالسِّحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن)). (الجرجاني 1992 م : 146) غالباً ما يحمل الحذف دلالات على التوتر النفسي وينشر جواً من الغموض والإبهام يصيب صاحبه بتلعثم في تكوين العبارة الشعرية ، فيدل ذلك على ضغوطات انفعالية و نفسية ووجدانية لما مرّ به الشاعر من ظروف صعبة (ينظر حمدان ، 1997 م :221 .) قال الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب (المقّري ، 2008 م : 12/7) :

في ليالٍ كتمتْ سرَّ الهوى بالدجى لولا شموش الغُرَرِ

وردت في الشرط الثاني كلمة (لولا) وهي حرف شرط يدل على امتناع شيء لوجود آخر ، فحينما ترد (لولا) في جملة مطلوب وجود شرطين معها فالأول مبتدأ (شموش الغرر) خبره محذوف وجوباً تقديره (موجود) . فظهر ذكاء الشاعر في استعمال هذه العبارة في نهاية البيت الشعري التي مثلت بنيتها الحذف في اللغة للدلالة على حالته التي مرّ بها ، فبعد ظهور الشمس عمّ الصمت المكان ، فمهما حاولت الليالي ليطفى ضوءها قام شوقه بمساعدته في كتم الحب وجاءت الشمس لتنهي هذا المشهد فيعمّ الصمت المكان .

- الصورة الشعرية :

الصورة الشعرية هو تشكيل بالكلمات ينظمها الشاعر ؛ ليثير فيها خيال المتلقي فيعبر عن مشاعره وتجاربه الشخصية ، فإثارة الخيال أساس الشعر وإلى ذلك أشار : ((واعتماد الصناعة الشعريّة على تخييل الأشياء التي يعبّر عنها بالأقاويل وبإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة)) (القرطاجني ، 2007 م : 62.) ، فحينما نقرأ قول الشاعر (المقّري ، 2008 م: 4/ 259) :

ربَّ ركبٍ قد أناخوا عيسَهُمْ في ذُرى مجدهمُ حينَ بَسَقْ
سـكتَ الدهـرُ زماناً عنهُمُ ثمّ أبكاهـمْ دماً حينَ نَطَقْ

يتمثل أمامنا ركب تخلوا عن مكانتهم فعابهم قومهم ، فصور لنا ذلك حينما ذكر بأنهم أنزلوا إبلهم في قمة مجدهم والأبل في ذاك الزمان وسيلة للترحال والتنقل ، فتبعهم الدهر الصامت على أفعالهم مراقباً لمدة زمنية ثم نطق بما رأى فندموا ندماً شديداً حتى سألت دموعهم دماً فأعمال القوم خلدتهم بسوء عملهم طول الدهر. مزجت هذه الصورة الشعرية بين أساليب بلاغية كثيرة أهمها المجاز . فكونت لنا صورة تمثيلية متحركة من نسج الخيال ظهرت فيها الثنائية المتضادة (الصمت – الصوت) ((والصورة إذ توحد بين حقيقتين متباعدتين في المكان لم تلتقيا قط إنما تصبح خلقاً جديداً معبرة عن عالم جديد . وإذ تنفي شكل الأشياء الظاهري وتركز على صفاتها ورموزها إنما تعيد الوحدة و الانسجام لهذا الكون المشتت المتناقض والمتباعد ، وتبقى للخيال تلك القدرة الصافية وذلك الفعل الكيميائي الذي يصهر الأشياء ويوحدها)).(عبيد ، 2010 م : 92.) فمزج الشاعر بين الأشياء المحسوسة وبين الأشياء الملموسة بأسلوب بلاغي ليرسم لنا صورة عن شخص خذل مجموعة بأكملها.

- أسلوب الجناس :

على الرغم من قلة استعمال هذا الأسلوب في النماذج التي وجدتها في كتاب (نفح الطيب) إلا أنها حملت معاني كثيرة لما لها من ((ضروب كثيرة : منها المماثلة ، وهي : أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى)) (القيرواني ، 1981 م : 1/ 321 .)، وهذا التشابه في اللفظتين يحفز العقل على الربط بين اللفظتين من ناحية الشكل و محاولة إيجاد الاختلاف من ناحية المعنى وموقعها في الكلام ، ((فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً)) (الجرجاني ، د. ت. : 4 .) ، ومن ذلك قول أبي بكر ابن عطية (المقّري ، 2008 م : 2/ 525) :

إذا لم يكــنْ في السمع منّــي تَصاوُنٌ وفي بَصري غَضٌّ وفي مِقْولي صَمْتُ
فحظي إذاً من صوميَ الجوعُ والظّما وإنْ قلتُ إنّي صمتُ يوماً فما صمتُ

ويكمن جمال الجناس الجنس الناقص (تغيير الحركات) في موقعه من هذين البيتين فقد ورد في قافية البيت الأول (صَمْتُ) وقافية البيت الثاني (صمتُ) وكأنه ربط بين الكلمتين برابط معنوي خفي فكلاهما الامتناع فالأول الامتناع عن الكلام والثاني الامتناع عن الأكل .

- الاستعارة :

ساد هذا الأسلوب البلاغي على معظم النماذج التي وردت في كتاب (نفح طيب) لما لها من قدرة على بث الحياة في الجامد وجعله كالحي ، وقد عرّف البلاغيون ((الاستعارة هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر ، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بأثباتك للمشبه ما يخص المشبه به .)) (السكاكي ،1987 م : 369 .) وتنقسم إلى المصرح بها و مكني عنها مثال ذلك قول الشاعر (المقّري ، 2008 م : 347/7) :

جعلتُ ملاكَ العين والقلبِ في الهوى بناطقةِ القُرْطَيْن صامتةِ القُلْبِ

وردت الاستعارة المكنية في الشطر الثاني من البيت حينما شبه الشاعر ما يتعلق في شحمة الأذن من ذهب أو درٍ كانسان ينطق وحذف المشبه به وأبقى على شيء من لوازمه وهو الكلام (النطق) ، وشبه القلب كشخص صامت فحذف المشبه به وأبقى ما دل عليه . فجعل للجامد إرادة تشبه إرادة الإنسان الذي اختار الصمت معرضاً عن الكلام .

- الطباق :

يعتمد العقل البشري على المقارنة والموازنة بين الأشياء فيُطرب لما يجده من هذا التقارب ومن هنا تميز أسلوب الطباق بقدرته على إثارة القارىء وقد عرّف البلاغيون الطباق بأنه : ((جَمْعُك بين الضدين في الكلام أو بيت شعر)) (القيرواني ، 1981 م : 2 / 5) ، قال فرج بن قاسم بن أحمد بن لب التغلبي غرناطي أبو سعيد (المقّري ، 2008 م : 5/ 511) :

إذا سكتوا عن وجدهمْ أعربتْ به بواطنُ أحوالٍ وما عرفتْ نطقا

ورد أسلوب الطباق عند الشاعر حينما ذكر كلمة (سكتوا) في بداية صدر البيت وضدها في نهاية عجزه (نطقا) ، وهنا يبرز ذكاء الشاعر للدلالة على أنها مهما حاولوا السكوت فتفضحهم المواقف فقد أختار الشاعر وضع كلمة (سكتوا) في بداية الشطر الأول دلالة عن بداية الأمر بالامتناع عن الكلام ثم عمد إلى ضدها في نهاية البيت (نطقا) دلالة على الأحوال التي جاءت بما عجزوا عن نطقه .

- الكناية والتعريض :

لاحظت استعمال الشاعر أسلوب الكناية والتعريض في أبيات كان الصمت هو المعنى السائد فيها ، وأسلوب الكناية ((هو أن يكنى عن الشيء ويعرض به ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء)) (العسكري ، 1981 م : 407 .) و عدّ البلاغيين الإيماء و الإشارة من أنواع الكناية (ينظرالسكاكي ،1987 م: 411 .) ، فالكناية هي ((عدمت وسائطها ، أو قلت مع وضوح اللزوم)) (عبد الرازق ،2006 م : 363.) ، فلغة الجسد أصبحت كناية وتعريضاً بحالهم بين مجموعة من الناس فبين حركات العيون و نظراتها تظهر المشاعر الخفية التي يصعب البوح بها ، فأنشد قوله (المقّري ، 2008 م: 1/ 619) :

العينُ تُبْدي الذي في نفسِ صاحبها مـن المحبّــة أو بُغْضٍ إذا كانـا
فالعَيـن تنطـق والأفـواه صامِتَــة حتى تَرَى من ضمير القلب تبِيْانا

جمعت هذه الأبيات الكناية والتعريض معاً فالتعريض بحالهم من الصمت والكناية عن المحبة أو الكره وهنا يمكن الفرق بين ((الكناية دالة على ما تدل عليه بجهة الحقيقة والمجاز جميعاً ، بخلاف التعريض ، فإنه غير دال على ما يدل عليه حقيقة ولا مجازاً ، وإنما يدل عليه بالقرينة)). (العلوي ، 2008 م : 2189/3 .) فلغة العين عادة تكون بالإيماء والاشارة فتحمل أجمل المعاني بين الحبيبين و أطرفها بين الأصدقاء و أشرسها بين الأعداء . فالعين منفذ العقول ولها عالم خاص وعن طريقها نعرف الشخصية الخجولة أو الشجاعة أو الجذابة .. وغيرها .

- النداء :

النداء هو تنبيه الشخص باستعمال أدوات خاصة للنداء أي ((دعوة المخاطب بحرف نائب مناب فعل كأدعو ونحوه)) (المراغي ، 2009 م : 69 .) ، و أصل هذه الأدوات هو (يا) وهي أم أدوات النداء وتستعمل للقريب والمتوسط والبعيد لكن ((الأصل في نداء القريب أن ينادي بالهمزة أو أَي ، وفي نداء البعيد أن ينادي بغيرهما من بقية الأدوات . غير أن هناك أسباباً بلاغية تدعو إلى مخالفة هذا الأصل)) (الجارم و أمين ، 1429 هـ : 210 .) قال الشاعر ممازحاً شخصية صامتة في مجلس يُعزف فيه آلة العود ، فقال (المقّري ، 2008 م : 5/ 180) :

يا صامتاً والعُودُ تحت بنانه يغنيك نطقُ الخُبْرِ فيه عن الخبرْ

فحينما نطق العود بحزن صاحبه حرك هذا الأمر أحاسيس الشاعر فنطق بكلامه فجاء النداء بأداة (يا) للإشعار المخاطب ولتنبيه الصامت اللاهي الغافل بأن يترفق بمن حوله الذي كشف حاله ، فخاطب الشاعر تلك الشخصية التي لجأت للصمت (يا صامتاً) ويحثه على الكلام لما له من أهمية في التخفيف عن حالته .

النتائج :

ذكر البحث تعريف الصمت و أهميته في الكلام مع تقسيم المفردات التي دلّت عليه إلى الصمت بصورة مباشرة وغير مباشرة . فالنوع الأول مثل : السكوت ، والكتم ، الخرس ، والصمت العقابي ، والنوع الثاني : كأن يقول الشاعر عبارة تدل على الصمت مثل : (وأسمعه مثلاً) فحينما نسمع شخصاً تتوجه جوارحنا للصمت.

- برز الصمت في أغراض كثيرة أهمها : الحكمة والغزل و التصوف .
- يميل الإنسان إلى المقارنة بطبيعته ولبيان حقيقة الأشياء لا بد من التدقيق في الضد والمقابل لكل ما نراه ، وهذا الأمر دفعني إلى دراسة الثنائية الضدية (الصمت والصوت) ، فالصمت هو غياب للصوت فحضور أحدهما هو غياب للآخر و ظهرت هذه الثنائية الضدية على نحو واضح عند الشعراء موضع البحث مما كثف المعنى .
- ظهر مؤخراً الاهتمام بمصطلح (الصمت العقابي) ، وعبر الشاعر قديماً عنه حينما اعراض عن الحديث مع الآخرين أو إعراض الآخرين عنه لأسباب عدة منها : خصام بين الأحباب والأصدقاء .
- كان الصمت مخفياً في أثناء الإيقاع فالسكون والحركة مثلت ثنائية الصمت و الصوت لكن بلغ الصمت قمته حينما ورد في القافية التي مثلت نهاية مشاعره و ركزت على مخرج الصوت لا على حركته .

- استعمل الشاعر أساليب بلاغية كثيرة لرسم صورته الشعرية عن الصمت وبيان مكانته فهو لا يقل أهمية عن الكلام : منها الحذف ، و الجناس ، والاستعارة ، و الكناية ، و النداء .

- **المصادر والمراجع :**

- الأندلسي ، أحمد بن محمد بن عبد ربه ، تحـ : الترحيني ، د. عبد المجيد ، (1983م) ، العقد الفريد ، دار الكتب العلمية ، ط1، بيروت – لبنان.
- بلاوي ، رسول ، ، خريف وشتاء (1438 هـ) ، لغة الصوصمتّية في ديوان ((أصابع المطر)) للشاعر العراقي حبيب السامر ، بحوث في اللغة العربية ، ع (15) ، جامعة أصفهان .
- بيكارد ، ماكس ، تقديم : مارسيل ، جابريل ، تر: قحطان جاسم ، (2018 م) ، عالم الصمت ، دار التنوير للطباعة والنشر ، ط1 ، لبنان – بيروت .
- الجاحظ ، (1983 م) ، مجموع رسائل الجاحظ ، حقق نصوصه وقدم لها و علق عليها : الحاجري ، د. محمد طه ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، بيروت .
- الجارم ، علي و أمين ، مصطفى ، (1429 هـ) البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع ، مؤسسة الصادق عليه السلام للطباعة والنشر ، ط 5 ، طهران .
- الجرجاني ، الأمام عبد القاهر ، تحـ : رضا ، السيد محمد رشيد ، ، (د. ت.) ، أسرار البلاغة في علم البيان ، دار المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، ط2 ، السعودية.
- الجرجاني ، الإمام عبد القاهر ، قرأه وعلق عليه : شاكر ، محمود ، (1413 هـ - 1992 م) ، دلائل الإعجاز ، مطبعة المدني ، القاهرة ، دار المدني ، ط3، جدة .
- حمدان ، د. ابتسام أحمد ، مراجعة وتدقيق فرهود ، أحمد عبد الله ، (1997 م) ، الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ، دار القلم العربي ، ط1 ، سورية .
- الديوب ، سمر ، (2009 م) ، الثنائيات الضدية (دراسات في الشعر العربي القديم) ، وزارة الثقافة ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، سورية .
- رمضان ، د. إبراهيم عبد الفتاح ، (2020 م) ، حين يكون الصمت بلاغة ، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية ، ع (5) ، ج (11) ، دمنهور – مصر .
- السكاكي ابن أبي بكر محمد بن علي علي ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : زرزور، نعيم ، (1987 م) ، مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ، ط2 ، بيروت – لبنان .
- عبيد ، كلود ، (2010 م) ، جمالية الصورة (في جدلية العلاقة بين الفن التشكيلي والشعر) ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط1 ، بيروت – لبنان.
- العسكري ،أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، حققه وضبط نصه : قميحة ، د. مفيد ، (1981 م) ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ، دار الباز للطباعة والنشر ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت – لبنان .
- العلوي ، الإمام يحيى بن حمزة بن علي ابن إبراهيم اليمني ، تحـ : هنداوي ، د. عبد الحميد ، (2008 م) ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، المكتبة العصريّة ، بيروت .
- غباش ، م.د. وصال قاسم ، (2021 م) ، الصمت ودلالاته في الشعر العربي القديم ، مجلة واسط للعلوم الإنسانية ، م (17) ، ع (47) ، جمهورية العراق .
- القرطاجني ، أبو الحسن حازم ، تحـ : ابن الخوجة ، محمد الحبيب ، (2007 م) ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، دار الغرب الإسلامي ، ط 4 ، بيروت.
- القيرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق ، الأزدي ، حققه ، وفصله ، وعلق حواشيه : عبد الحميد ، محمد محيي الدين ، (1981 م) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، دار الجيل ، ط 5 ، سوريا .
- لوبروطون ، دافيد ، تر: الزاهي ، فريد ، (2019 م) ، الصمت لغة المعنى والوجود ، المركز الثقافي للكتاب ، الدار البيضاء – المغرب ، ط1 ، بيروت - لبنان.
- محمود ، إبراهيم ، (2002 م) ، جماليات الصمت في أصل المخفي والمكبوت عن جماليات الصمت والكلمة التي تترقب ساعتها ، مركز الإنماء الحضاري ، ط 2 ، دمشق .
- المراغي ، أحمد مصطفى ، (2009 م) ، علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع) ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت.
- المقّري ، الشيخ أحمد بن التلمساني ، تحـ : عبّاس ، د. إحسان ، (2008 م) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، دار صادر ، ط 5 ، بيروت – لبنان .
- النعيمي ، د. حسام سعيد ، (1980 م) ، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام – الجمهورية العراقية سلسلة دراسات (234) ، دار الرشيد للنشر .
- يموت ، د. غازي ، (1992م) ، بحور الشعر العربي (عروض الخليل) ، سلسلة فن التعبير بالكلمة ، ط 2 ، دار الفكر اللبناني ، لبنان .